8. الفصل السابع

أبرز القادة في العصر الروماني في مصر

(– – – كان حكم الرومان لمصر يتشابه مع حكم الفراعنة والبطالمة وهو استغلال هذا البلد واعتباره ضيعة خاصة ، سواء للفرعون أو للبطليموس أو للإمبراطور الروماني ، ولكن هناك فرق كبير بين حكم الفراعنة والبطالمة وبين حكم الرومان ففي الحالتين السابقتين كان ثراء مصر يبقي داخلها بالرغم من أنه يذهب إلي خزانة الفرعون أو البطليموس ، أما في العصر الروماني فإن خيراتها كانت تنقل إلي الخارج ، إلي روما ليتمتع بها الشعب الروماني ، وما يذهب لا يعود ، أي أنه مع الحكم الروماني بدأ نهب مصر الفعلي ، وكأن روما كانت الثري الذي يؤجر ضيعته وهو مقيم في أوروبا حيث ينفق ريعها هناك – – –)[151]

وقد بلغ عدد الأباطرة الرومان في روما الذين سيطروا علي مصر 27 إمبراطور وتولي حكم مصر في عهدهم 86 والياً رومانياً[152] لمدة حوالي 353 سنة كاملة ثم جاء بعده العصر البيزنطي نسبة إلي مدينة بيزنطة وبدأ هذا العصر سنة 323 م وتولي حكم مصر في هذا العصر 79 والياً عاصروا 22 إمبراطوراً[153]

الإمبراطور أغسطس وسر الإمبراطورية :

شعر الإمبراطور أغسطس بأهمية مصر كولاية غير عادية في الإمبراطورية الرومانية فاتخذ بها عدة إجراءات خاصة بها فقط ، ومن أهم الإجراءات أنه قام بتوزيع عدد ضخم جداً من القوات الرومانية في مواقع حساسة ومهمة في أنحاء مصر وبلغت هذه القوة ثلاثة فرق رومانية كاملة وعدداً من الكتائب المساعدة وهذا يعادل حوالي 22800 مقاتل وهو عدد يفوق بكثير متطلبات الموقف[154] وذلك يعكس حقيقة قلق أغسطس البالغ ،

كما قسم مصر إلي ثلاثة مناطق إدارية وأصدر قرار غريب جداً يمنع بمقتضاه أي شخص من عظماء روما أن يزور مصر إلا بإذنه شخصياً سواء كان من مجلس السناتو أو من كبار القادة الطموحين[155] لأنه كان يخشي أن يتولي حكم مصر والي ذو طموح يمكنه الاستقلال بها باستغلال إمكانياتها وهذا يدل علي حكمته البالغة وخبرته الواسعة في أمور القتال والسياسة أيضاً ، كما قام بإجراء العديد من الإصلاحات الزراعية ومشاريع الري وتطهير القنوات وشق الترع وإصلاح المرافق وأعطي تعليماته للوالي أن يستكمل كل هذه الأعمال بعد مغادرته إلي روما وكان اهتمام أغسطس بالزراعة وخاصةً زراعة القمح في مصر لأنها ستصبح المصدر الرئيس للقمح في الإمبراطورية حيث أصبحت مصر تطعم روما بعد ذلك كما جعل لمصر عملة خاصة بها وأطلق علي هذه الإجراءات (سر الإمبراطورية)[156] ، (– – ولقد جعل أغسطس مصر إحدي الممتلكات الشخصية والخاصة بالإمبراطور والتي يرتبط حكمها بشخصه مباشرةً ، وقد رأي أغسطس عدم إدماج مصر إدماجاً كاملاً في

---

151 من كتاب معالم تاريخ وحضارة مصر – القسم الثاني (د سيد الناصري) صـ 143

152 موسوعة حكام مصر (ناصر الأنصاري) صـ 45

153 موسوعة حكام مصر (د ناصر الأنصاري) صـ 52

154 معالم تاريخ وحضارة مصر – القسم الثاني (د سيد الناصري) صـ 123

155 ويسري هذا القرار حتي علي آل البيت الإمبراطوري الحاكم

156 من كتاب (معالم تاريخ وحضارة مصر – من أقدم العصور حتي الفتح العربي) – القسم الثاني – د سيد الناصري – صفحة 123

الإمبراطورية ، بل أصر علي عزلها وعدم المساس بنظمها الإدارية والدينية التي كانت موجودة بها قبل دخول الرومان ، وعين علي البلاد والياً من طبقة الفرسان يساعده ثلاثة من كبار الموظفين ، هم المشرف علي العدالة والمسئول عن الحسابات الخاصة وأمين الخزانة ، وكان أغسطس بالنسبة للمصريين فرعوناً وابن الإله آمون رع وله كل مظاهر القداسة والتأليه من المصريين ، فحمل الألقاب المقدسة التقليدية حسب العقيدة والفكر المصريين أما بالنسبة للإغريق " شعب الإسكندرية في ذلك الوقت " فقد كان الوريث لسلطان البطليموس ، وقد صادر قسماً كبيراً من أراضي المعابد ونقل إدارتها إلي الدولة مقابل صرف رواتب ومنح للكهنة ، ومما أثار حنق السكندريين " الإغريق " علي الحكم الروماني المحاباة التي أظهرها أغسطس لليهود الموجودين بمدينة الإسكندرية – التي كانت بمثابة مدينة إغريقية كاملة علي أرض مصر – إذ وافق علي استمرار كل الإمتيازات التي كان اليهود يتمتعون بها إبان عصر البطالمة ، وقد فعل أغسطس ذلك لإيجاد توازن بين السكندريين واليهود ومكافأة اليهود علي ولائهم للرومان وكذلك لأن الرومان كانوا مطمئنين من ناحية اليهود لأنهم أقلية ، بالإضافة إلي أنهم سيكونون عملاء للرومان في المستقبل ، وكما ترك أغسطس حامية عسكرية بالإسكندرية ، وترك أخري بضاحية بابليون التي كانت امتداداً لمنف عبر النيل شرقاً ، كما وضع أوكتافيوس أغسطس فرقة رومانية ثالثة عند مدينة طيبة " الأقصر " ، كذلك وزع عدداً من الكتائب المساعدة لترابط عند المناطق الاستراتيجية ، وكان الوالي الروماني جايوس كورنيليوس جاللوس هو أول والي روماني يعينه الإمبراطور أغسطس علي مصر ، وكان قبل ذلك يقوم بدور الاتصال والوساطة بين الملكة كليوباترا السابعة البطلمية والقائد أوكتافيوس أغسطس الروماني وهو أحد قواد أوكتافيوس ، وقد أسدي هذا القائد خدمة جليلة له عندما استولي علي منطقة مرسي مطروح ورد الهجوم البري والبحري الذي قام به ماركوس انطونيوس علي المدينة لاسترداد فرقه العسكرية التي تخلت عنه ، وقد حكم كورنيليوس مصر من سنة 30 ق م إلي سنة 27 ق م أي ما يقرب من 3 سنوات ، وهو أحد رجال الفرسان وكان صديقاً شخصياً لأغسطس ، وبالإضافة لصفته العسكرية كان أديباً وشاعراً معروفاً لدي الأوساط الأدبية ، وأهم ما يذكر في عهده قيام أول حركة تمرد ضد الحكم الروماني بالقرب من خليج السويس ، وقد تمكن جاللوس من القضاء علي هذا التمرد ، ولم يكد يمضي عام حتي هب بركان الثورة في طيبة سنة 29 ق م بمجرد وصول جباة الضرائب الرومان ، وبلغ من شدة هذه الثورة أن قام الوالي الروماني بنفسه بقيادة القوات الرومانية لقمع هذه الثورة ، وأدرك الثوار أنهم أمام والي قاسي جاد لا يسمح بأي تساهل ، واشتبك الجيش الروماني مع الثوار المصريين في معركتين سحق فيهما خمس مدن ، وبعد الانتهاء من هذه المهمة قرر الوالي كورنيليوس جاللوس أن يسير جنوباً لتأمين حدود الإمبراطورية في أفريقيا

وقد سمح الوالي كورنيليوس بأن تقام التماثيل من أجله وأن تنقش أخبار انتصاراته علي واجهة المباني العامة ، الأمر الذي أزعج الإمبراطور أوكتافيوس أغسطس فعزله ونفاه ، فاشتد الحزن بجاللوس حتي انتحر ذلك الوالي الذي كان أول من حمل لقب والي الإسكندرية ومصر)[157] ،

---

[157] نقلاً عن كتاب (هؤلاء حكموا مصر – من مينا إلي مبارك) إعداد حمدي عثمان – المراجعة العلمية د ناصر الأنصاري – الهيئة المصرية العامة للكتاب – الطبعة الثانية 2012 – مقتطفات مختصرة من صفحة 138 إلي صفحة 141 157

وقبل أن نترك الحديث عن الإمبراطور أغسطس سنذكر حدث من أهم الأحداث التي وقعت في عهده ، ألا وهو زيارة العائلة المقدسة لمصر ، حيث ولد السيد المسيح عيسي بن مريم في عهد الإمبراطور الروماني أوكتافيوس أغسطس وكانت مصر ولاية تابعة للإمبراطورية الرومانية ، وقد لجأت السيدة العذراء إلي مصر بولدها وكان يحكم مصر أثناء هذه الرحلة والي روماني يسمي (جايوس تورانيوس) وكان قد تولي حكم مصر سنة 5 قبل الميلاد ، وفي عهده ولد السيد المسيح في بيت لحم بفلسطين ، حيث كانت فلسطين أيضاً تابعة لنفوذ الإمبراطور الروماني أغسطس وكان يحكم فلسطين الملك اليهودي (هيرودس) الكبير

ولقد هربت السيد مريم العذراء بولدها علي ما يروي إنجيل متي إلي مصر ، وإن هناك شبه إجماع علي أن كنيسة أبي سرجة بمصر القديمة شيدت في نفس المكان الذي أقامت به العائلة المقدسة لما هربت إلي مصر من وجه هيرودس

وقد جاءت العائلة المقدسة إلي مصر عن طريق صحراء سيناء ودخلوها من جهة الفرما (قرب بورسعيد) ، ومنها إلي مدينة بسطة (تل بسطة بجوار الزقازيق) ، واتجهوا غرباً فعبروا فرع النيل الشرقي عند سمنود وظلوا سائرين غرباً إلي فرعه الغربي فعبروه ومروا بوادي النطرون ، ومن هناك ساروا إلي الوجه القبلي فنزلوا بمدينة الاشمونين ، ثم مضوا إلي القوصية إلي قرية ميرة وهبطوا حيث يوجد دير المحرق ، وبعد أن اقاموا به بضعة أشهر علي الأكثر انحدروا شمالاً حتي جاءوا بابليون (مصر القديمة) وكان بها حي لليهود ونزلوا في الموقع الذي به كنيسة القديس سرجيوس المعروفة بكنيسة سرجة ، وغادروها إلي عين شمس ، وكانت مدينة عامرة باليهود فأقاموا يستظلون بشجرة يقال إن موضعها حيث توجد الآن الشجرة المعروفة بشجرة العذراء بالمطرية ، ومن هناك انطلقوا إلي فلسطين عن طريق محافظة الشرقية [158]

{وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ } (50) سورة المؤمنون

---

[158] نقلاً عن كتاب (هؤلاء حكموا مصر – من مينا إلي مبارك) إعداد حمدي عثمان – المراجعة العلمية د ناصر الأنصاري – الهيئة المصرية العامة للكتاب – الطبعة الثانية 2012 – صفحة 144

الإمبراطور كاليجولا ومؤامرة اليهود علي الوالي الروماني بالإسكندرية :

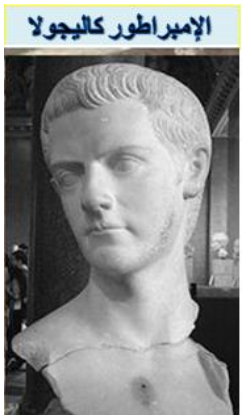

كان كل من الشعبين الإغريقي واليهودي علي خلاف دائم ونزاع حول الامتيازات المخصصة لكل منهم فكان الإغريق أصحاب ديانة وثنية أما اليهود فكانوا أصحاب ديانة سماوية ، وبعض المؤرخين عندما يكتبون عن شعب الإسكندرية يطلقون عليهم الإغريق المصريين أو المصريين الإغريق ويقصدون بذلك شعب الإسكندرية ، ومنذ أن تم احتلال مصر بواسطة الرومان كان يلقب الوالي الروماني بوالي مصر والإسكندرية علي أساس أن الإسكندرية تمثل دولة في حد ذاتها داخل الدولة المصرية ، أما عن قصة مؤامرة اليهود علي أحد الولاة الرومان بالإسكندرية وكان اسمه أولوس افيليوس فلاكوس ، فقد وردت في كتاب (هؤلاء حكموا مصر) (إعداد حمدي عثمان) في صفحة 146 وصفحة 147 وفيما يلي بعض ماورد عن هذا الموضوع بالكتاب :

تولي أفيليوس فلاكوس حكم مصر في سنة 34 م ، وقد اشتهر بالحزم في إدارة شئون مصر ، وقد عاصر حكم فلاكوس أواخر عهد الإمبراطور الروماني تيبريوس وأوائل عهد الإمبراطور كاليجولا ، وأهم ما يذكر في عصر فلاكوس الحرب الأهلية بين الإغريق المصريين وبين طائفة اليهود ، ولذلك أصدر منشوراً يحرم فيه حمل الأسلحة إلا بإذن منه ، ويحدد عقوبة مخالفة ذلك بالإعدام ، فأمر بتفتيش منازل اليهود بحثاً عن الأسلحة ، وقد اندلعت الشرارة الأولي في الحرب الأهلية بين المصريين الإغريق وبين الطائفة اليهودية سنة 38م ،ومن الواضح أن الوالي الروماني وقع ضحية لحرب ذكية بين فريقين متعادلين لأنه لم يكن منحازاً لأهل الإسكندرية ، بل كان رومانياً مخلصاً يهمه إرضاء سيده الجالس علي العرش قبل كل شئ ، فاستطاع اليهود عن طريق ممثلهم في روما إيغار صدر الإمبراطور كاليجولا علي الوالي فلاكوس ، فأرسل الإمبراطور قوة عسكرية تحت إمرة قائد يدعي (باسوس) وحرصت القوة علي أن تنزل بالميناء ليلاً ، ثم تسللت إلي داخل المدينة واتجهت أولاً إلي بيت قائد الجيش الروماني وأبلغته أمر القبض علي الوالي ، وبعدئذ بحثت عن الوالي فعرفت أنه مدعو في وليمة عند أحد أصدقائه ، فاقتحمت المكان وألقت القبض عليه ونقلته إلي روما في أكتوبر سنة 38م ، حيث قدم للمحاكمة التي قررت إدانته ، وصودرت أملاكه وأمواله ونفي إلي جزيرة أندروس الصخرية الموجودة في بحر إيجة وبقي فيها حتي إعدامه

الإمبراطور تراجانوس وإعادة القمح إلي المصريين :

رغم أن الإمبراطور تراجانوس لم يزر مصر ، إلا أن اهتمامه بها كان بالغاً ، فقد تولي الإمبراطور تراجانوس عرش الإمبراطورية الرومانية من سنة 98 م إلي سنة 117 م ، وقد كان الإمبراطور تراجانوس حالة خاصة جداً في تاريخ الرومان ، فكان ينظر في المظالم والشكاوي بنفسه ، وكثيراً ما أبدل مركز روما التقليدي من مصر بأن أطعم الثانية علي حساب الأولي ، فقد أراد في إحدي السنوات أن يخفف من وطأة المجاعة التي كانت تجتاح مصر بسبب انخفاض النيل ، فأعاد إلي مصر أسطولاً محملاً بالقمح ، وقد شجع تراجانوس التجارة المصرية مع الشرق وذلك بشق قناة تصل بين البحر الأحمر والبحر المتوسط عن طريق نهر النيل وهذا بالقرب من رأس الدلتا أطلق عليها قناة تراجان ، فعاد هذا العمل علي مصر بالخير فزادت تجارتها إلي حد كبير وأصبحت الهند هدف التاجر المصري المُجِد ، ورغم أن الرحلة كانت تستغرق 12 شهراً فإن الأرباح الناتجة عنها كانت تبرر متاعبها ومشاغلها ، وقد قام تراجانوس إبان حكمه بعدة تغييرات عسكرية وأعمال عسكرية ، منها بناء قلعة بابليون علي ضفة النيل الشرقية ، كذلك أنشأ فرقة عسكرية رومانية جديدة وجعلها تعسكر في حصن بابليون (كما فعل قبل الإمبراطور أغسطس وأنشأ ضاحية النصر بالإسكندرية لتتمركز فيها أحد الفرق الرومانية وهي المنطقة المعروفة حالياً باسم فيكتوريا بالإسكندرية) ، وقد تولي حكم مصر في عهد الإمبراطور تراجانوس الوالي جايوس فيبيوس ماكسيموس الذي عزله الإمبراطور بسبب اتهامه من شعب الإسكندرية بعدة اتهامات منها الابتزاز والرشوة واستغلال النفوذ ، وكذلك تولي حكم مصر في عهد تراجانوس الوالي روتيليوس لوبوس وكذلك تولي حكم مصر في عهده الوالي ماركوس توريو[159]

[159] نقلا عن كتاب (هؤلاء حكموا مصر) (إعداد حمدي عثمان)

الإمبراطور ماركوس أوريليوس واندلاع ثورة عارمة في مصر :

عندما تم احتلال مصر سنة 30 قبل الميلاد بواسطة الرومان في عهد الإمبراطور أغسطس ، اعتني بمصر واتخذ بها مجموعة من الإجراءات الخاصة كي تصبح المصدر الرئيس للقمح وكان كمن يعتني بالبقرة قبل أن يحلبها ، وبمرور الوقت وتعاقب الأباطرة الرومان في حكم الإمبراطورية قل الاهتمام بالعناية بمصر واستمر النهب فقط حتي أصبحت مصر تعاني من الإهمال الشديد ،

وفي عهد الإمبراطور ماركوس أوريليوس الذي تولي الحكم سنة 161 ميلادياً160 قام المصريون الوطنيون بثورة عارمة وكان قائد الثورة كاهن مصري يُدعي (ايسودوروس) ، ولم يتمكن الرومان من قمع الثورة بالقوة ويقول عنها د سيد الناصري :

(-- وكان مبعث هذه الثورة هو تفشي السخط بين الفلاحين المصريين بسبب بهاظة الضرائب وتعددها وبسبب أعمال السخرة المهينة لدرجة أنهم لم يعودوا يتحملون عملية الاستنزاف الاقتصادي والنهب المالي لمواردهم والذي وصل إلي حد تسخير طاقاتهم البشرية ذاتها --)161

وقد أصبحت الإسكندرية العاصمة نفسها في ذلك الوقت مهددة بالسقوط في يد الثوار مما أدي إلي استخدام الرومان أساليب أخري للسيطرة علي الثورة لأن القوة لم تفلح معها

وكان يوجد في ذلك الوقت قائد روماني يتسم بالمكر والدهاء اسمه (افيديوس كاسيوس) وقام بإحداث وقيعة بين صفوف الثوار أنفسهم فتحولوا من قتال الرومان إلي قتال بعضهم البعض وهكذا انتهت هذه الثورة بالحيلة وليس بالقوة ، وظل الرومان يستنزفون خيرات مصر بأسلوب مبالغ فيه جداً مما أدي إلي دخول مصر في أزمات اقتصادية حادة فتم اعتماد روما علي قمح شمال أفريقيا في المقام الأول بدلاً من مصر لأن إنتاج القمح المصري لم يعد يسد حاجة روما162

الملكة زنوبيا تسيطر علي مصر وتتحدي الإمبراطورية الرومانية :

في عام 270 م استطاعت القوات العربية التدمرية غزو مصر وهزيمة القوات الرومانية المستقرة بها حيث قامت قوات الملكة زنوبيا بهزيمة قوات الوالي تيناجينو بروبوس ، الذي آثر الانتحار علي العار ، ونودي بالأمير وهب اللات (وابالاثوس) ابن الملكة زنوبيا (الزباء) والذي كان صبياً في العاشرة من عمره إمبراطوراً حيث رسمت صورته علي عملة مدينة الإسكندرية – عاصمة مصر في ذلك الوقت – جنباً إلي جنب مع صورة الإمبراطور الروماني كلاوديوس جوثيكوس مع بقاء الإدارة الرومانية ، أي كان الحكم امتزاجاً بين العربي والروماني ، ---

وعندما تولي الإمبراطور الروماني أوريليانوس عرش الإمبراطورية الرومانية ، اعترف – مؤقتاً – بوهب اللات شريكاً له في حكم ولايات الشرق وظهرت عملة مدينة الإسكندرية تحمل صورة الإمبراطور أوريليانوس علي الوجه وصورة وهب اللات علي الوجه الآخر ، -- وبعد ذلك بفترة سكت عملة في الإسكندرية سنة 271 م تحمل

---

160 موسوعة حكام مصر (د ناصر الأنصاري) صـ 47

161 معالم تاريخ وحضارة مصر (القسم الثاني) (د سيد الناصري) صـ 210

162 معالم تاريخ وحضارة مصر (القسم الثاني) (د سيد الناصري) صـ 218

صورة وهب اللات علي الوجه وتلقبه باسم (الإمبراطور المؤله) وهو اللقب التقليدي لأباطرة الرومان ، بينما ظهرت صورة أمه علي الوجه الآخر ،

وفي ربيع سنة 271 م تأزمت العلاقات بين وهب اللات العربي والإمبراطور أوريليانوس الروماني ، فأعلن وهب اللات نفسه إمبراطوراً لا علي الشرق فحسب بل علي الإمبراطورية الرومانية كلها ،

لأنه كان يطمع في تأييد قوات الشرق له ،

ورداً علي ذلك قام الإمبراطور الروماني بإرسال قواته للقضاء علي وهب اللات وأمه حيث استطاع القائد الروماني أن يستولي علي الإسكندرية ولكن باقي مصر ظل خارج سلطان الرومان - - -

وبعد العديد من المعارك سقطت زنوبيا ووقعت أسيرة وسار بها الإمبراطور الروماني في شوارع روما مقيدة بسلاسل ذهبية وتوقف سك العملة التي تحمل صورة وهب اللات علي الوجه وصورة أمه زنوبيا علي الظهر ، وحلت محلها العملة التي تحمل صورة أوريليانوس وحده إمبراطوراً[163]

الصورة لتمثال الملكة زنوبيا التي كانت تحكم مملكة تدمر العربية في منطقة الشام الحالية وثارت علي الحكم الروماني وسيطرت علي سوريا وضمت مصر إلي حكمها وفرضت ابنها علي الإمبراطور الروماني لفترة

[163] نقلاً عن كتاب (هؤلاء حكموا مصر) حمدي عثمان – صفحة 167 ، 168 – الهيئة المصرية العامة للكتاب

الإمبراطور دقلديانوس وعندما كانت مصر أتعس ولاية في الإمبراطورية الرومانية :

عندما جلس الإمبراطور دقلديانوس علي عرش الإمبراطورية الرومانية قرر أن يقوم بإجراء تعديلات جوهرية لتطبق علي جميع الولايات الرومانية ، وشملت هذه التعديلات مجالات عديدة مالية[164] واجتماعية وعسكرية[165] ، وقد تأثرت مصر بهذه التعديلات وتغير وضعها تماماً عن ذي قبل بل إن هذا الإمبراطور بالذات بلغ في عهده الاضطهاد الديني في مصر ذروته ،

حتي أن عهده يعرف باسم عصر الشهداء وكان طبعاً لليهود دور كبير في محاربة الديانة المسيحية فكانوا يقومون بالوشاية لدي السلطات الرومانية لتعذيب وقتل المسيحيين بل إنهم كانوا يحاولون بث الخلاف المذهبي والفكري بينهم وكان عدد ولاة مصر في عهد هذا الإمبراطور سبعة ولاة[166] حكموا مصر في عهده حوالي 21 سنة ، كانت خلالها مصر أتعس الولايات الرومانية فمثلاً بعد أن كانت لها عملة خاصة بها تميزها عن سائر الولايات الرومانية أصبح هناك عملة رومانية موحدة للإمبراطورية بالكامل بما فيها مصر ، وكل المزايا والقواعد التي وضعها الإمبراطور أغسطس لمصر هدمها دقلديانوس ، والطريف أن في بداية عهده قامت ثورة في الإسكندرية وكان قائدها ضابط روماني الجنسية ، وقد أعلن التمرد علي روما بل التفت حوله جماهير الإسكندرية فقد أعلن نفسه إمبراطوراً[167] وكانت هذه الصدمة الكبرى الأولي لدقلديانوس مما أدي إلي حضوره بنفسه إلي مصر بقوات ضخمة وحاصر الإسكندرية لمدة 8 شهور كاملة حتي جاع الناس فيها ، ودخلها بعنف ودمر وحرق العديد من منشآتها ومبانيها ثم قرر أن يتودد لأهلها ، ويقول عن ذلك د سيد الناصرى (– – وربما حاول دقلديانوس شراء صبر السكندريين وولاءهم ، حفاظاً علي هيكل الإمبراطورية الآيل للسقوط ، عندما أصدر قراراً بأن تخصص نسبة حيازة القمح لرفع الجوع عن أهل المدينة فأقام الوالي الروماني أثراً ضخماً لشكر الإمبراطور ، ويعرف حالياً بعمود السواري – –)[168] ، لكن المشكلة الحقيقية أن دقلديانوس قرر استئصال

---

[164] من ضمن الإجراءات المالية توحيد العملة علي مستوي الإمبراطورية بالكامل بما فيها مصر ولم تعد لمصر العملة الخاصة بها وقام هذا الإمبراطور بنسف كل ما تبقي من إجراءات الإمبراطور أغسطس في مصر والمعروفة بسر الإمبراطورية

[165] من أهم الإجراءات العسكرية التي قام بها هذا الإمبراطور هو انسحاب القوات الرومانية من حدود الإمبراطورية إلي خطوط أقوي

[166] موسوعة حكام مصر (د ناصر الأنصاري) صـ 50

167 معالم وتاريخ حضارة مصر (القسم الثاني) (د سيد الناصري)صـ254

168 معالم وتاريخ حضارة مصر (القسم الثاني) (د سيد الناصري)صـ 255

الديانة المسيحية التي كانت منتشرة في عهده أكثر من العهود السابقة فقد كان يعتبر أن هذه الديانة تحدياً سافراً لسلطانه المؤله علي شعوب الإمبراطورية لأن المسيحيين رفضوا في عناد عبادة الإمبراطور

(– – – ومما دفع الإمبراطور إلي فقدان اتزانه ، أن يحدث هذا في مصر التي عرفت بعبادة فراعنتها ثم عبادة ملوك البطالمة كفراعنة وعبادة أباطرة الرومان كآلهة وفراعنة فلماذا يحدث هذا لشخصه دون أسلافه ، ولهذا اعتبر هذا الرفض تحدياً لشخصه ولم يفهم الدوافع النفسية أو العقائدية وراء هذا الإصرار – –)169 ،

وتم قتل مئات الآلاف (– – وقد بلغ من هول الجريمة أن المسيحيين المصريين رغم مرور أكثر من خمسة عشر قرناً من الزمان علي ذلك إلا أن ذكراها لم تخبو ولهذا بدأت الكنيسة المرقسية القبطية المصرية تقويمها فيما بعد بتاريخ اعتلاء ديوقلديانوس عرش الإمبراطورية "284م" حيث أطلقوا علي هذا التاريخ عام الشهداء – –)170 ، (– – وكان المسيحيين يتسابقون نحو الشهادة وهم فرحون ويرتلون أغاني الحمد والشكر لله الذي أهلهم أن يموتوا من أجله – –)171 ، وقد بلغ عدد القتلى أكثر من 800000 نسمة172 وكانت أساليب القتل والتعذيب في عهد دقلديانوس متعددة ومختلفة مثل الحرق بالنار والزيت المغلي وتمزيق الأجساد بالآلات الحادة وإطلاق الحيوانات المفترسة عليهم في أماكن مغلقة وغير ذلك من أفظع الوسائل وأبشعها

وقد قام دقلديانوس من ضمن إجراءاته وتعديلاته بتقسيم الإمبراطورية الرومانية إلي قسمين رئيسيين قسم شرقي وقسم غربي وجعل علي كل قسم حاكم بلقب أغسطس ونائب بلقب قيصر وبعد أن مات تصارع خلفاءه علي العرش ووصل الأمر إلي نشوب القتال بين الفريقين واستمر هذا الصراع والتنافس بين الأباطرة والقياصرة إلي أن استطاع قسطنطينوس (والد قسطنطين) أن يهزم منافسه ويجلس علي العرش ، واتخذ بعد ذلك قسطنطين عاصمة جديدة له وكانت عبارة عن مدينة قديمة اسمها بيزنطة وأطلق عليها اسمه لتكون القسطنطينية (مدينة استنبول حالياً بتركيا) والتي أصبحت بعد ذلك عاصمة الجزء الشرقي للإمبراطورية الرومانية[173]

---

169 معالم وتاريخ حضارة مصر (القسم الثاني) (د سيد الناصري)صـ 261

170 معالم وتاريخ حضارة مصر (القسم الثاني) (د سيد الناصري)صـ 262

171 المسيحية والإسلام في مصر (د حسين كفافي) صـ 41

172 المسيحية والإسلام في مصر (د حسين كفافي) صـ 52

173 معالم تاريخ وحضارة مصر – القسم الثاني (د سيد الناصري) صـ 263

الإمبراطور قسطنطين الأول واعتناق الديانة المسيحية :

يعتبر هذا الإمبراطور هو مؤسس العصر البيزنطي نسبة إلي مدينة بيزنطة وبدأ هذا العصر سنة 323 م وتولي حكم مصر في هذا العصر 79 والياً عاصروا 22 إمبراطوراً[174] أشهرهم بالنسبة للبعض حالياً قسطنطين الأول وهرقل ، وقد حدث أن الإمبراطور قسطنطين اعترف بالديانة المسيحية وهو يعد أول إمبراطور مسيحي في تاريخ الرومان بالكامل وقد أسعد ذلك بالطبع المصريين في البداية وتوقعوا توقف الاضطهاد الديني ولكن سرعان ما اختفت هذه السعادة فقد حدثت المشاكل وبدأ الاضطهاد بعد حدوث خلاف حاد بين الكنيسة بالإسكندرية وكنيسة الإمبراطورية حول طبيعة السيد المسيح نفسه ويقول د سيد الناصري عن ذلك (- - - ولكن ثبت أن اضطهاد الأباطرة الوثنيين كان عاملاً مساعداً، ليس في انتشار المسيحية فحسب بل في توحيد جبهتها وتناسي خلافاتها العقائدية إذ سرعان ما برزت هذه الصراعات العقائدية حول قانون الإيمان المسيحي والأسس الفلسفية للعقيدة الجديدة وكان الصراع الأكبر بين الأسقف الكسندر روس وشماسه أثناسيوس من ناحية وبين خصم لدود هو أسقف آخر اسمه آريوس حول علاقة الأب بالابن وهل الابن هو نفس الأب أم شبيه به ، لقد رفضت الكنيسة المرقسية في الإسكندرية بشدة رأي آريوس الذي رأي أن الابن لا يمكن أن يكون وجوده مع الأب بل يليه وبالتالي فهو ليس نفسه بل شبيه به ، بينما تمسكت الإسكندرية بأن الأب ظهر في جسم الابن الذي هو المسيح وكانت خطورة هذا الجدل اللاهوتي ما نتج عنه من ردود فعل سياسية ، هددت الإمبراطورية بالعودة إلي الحروب الأهلية - -)175 ونفهم من هذا أن الضغط الرهيب الذي كان موجوداً علي المسيحيين جعلهم متحدين أمام القهر الإمبراطوري ، أما بعد أن أصبحت الإمبراطورية تعترف بالديانة المسيحية فقد أعطاهم الفرصة للجدل حول طبيعة السيد المسيح والمؤكد أن هذا الجدل أصبح مشهور جداً في بيزنطة حتي أنه أصبح علماً عليها ويعرف حالياً بالجدل البيزنطي فنطلق هذا الوصف علي أي جدل يطول دون الوصول إلي أي نتيجة ،

وقد كان هذا الخلاف بين الكنيستين من أسباب عودة الاضطهاد الديني مرة أخري بعد أن فشلت جميع محاولات قسطنطين في احتواء هذه الأزمة ويأس من توحيد الإمبراطورية علي مذهب واحد بوضع أساس قانون الإيمان

---

174 موسوعة حكام مصر (د ناصر الأنصاري) صـ 52

175 معالم تاريخ وحضارة مصر – القسم الثاني (د سيد الناصري) صـ 263 –

المسيحي وكان قد اعتقد أن بصفته إمبراطوراً يمكنه السيطرة علي الكنيسة ويقول د سيد الناصري عن ذلك (- - – وقد ردت الكنيسة التي كانت قد أصبحت قوية ومسيطرة بأن الإمبراطور مسيحي قبل أن يكون إمبراطوراً وأنه قبل توليه العرش يجب أن تباركه الكنيسة بالشعائر الخاصة ومن حق الكنيسة عدم الموافقة علي أداء مثل هذه الشعائر – –)[176] بل إن الكنيسة ادعت لنفسها الحق في الاستقلال المالي والإداري ، وهكذا عادت الإسكندرية إلي التمرد علي الرومان ولكن بزعامة الكنيسة هذه المرة ، ويبدوا أن السكندريين (الإغريق) كانوا يتمنون أن تكون عاصمة الإمبراطورية هي الإسكندرية بدلاً من بيزنطة التي اختارها الإمبراطور وكان هذا سبباً آخر لزيادة السخط علي الإمبراطور وحدثت مشاكل بين الإسكندرية والإمبراطور رغم محاولته تفاديها ، وبالمناسبة تم تقسيم الإمبراطورية بالفعل بعد موت قسطنطين إلي شرقية وغربية وأصبحت الإمبراطورية الشرقية هي الأقوى والأكثر ازدهاراً وحضارة بينما انهارت الإمبراطورية الغربية بعد ذلك نتيجة لتعرضها لغزوات وحروب خارجية ليس هذا مجالاً للحديث عنها

وقد ذاق المصريون الأمرين في هذه العصور فإن مشكلة اختلاف المذاهب لم تكن المشكلة الوحيدة رغم أنها الرئيسية إلا أن مصر كانت تعاني من الظلم والفقر والضرائب الباهظة وقد قرر الرومان أن يكون والي مصر هو نفسه الأسقف في نفس الوقت مما أدي إلي أن المصريين كانوا ينتخبون البطريرك الخاص بهم سراً (وأول بطريرك تم انتخابه سراً هو بطرس الرابع وذلك عام 576 م)177 وفي عام 622 تم انتخاب الأنبا بنيامين الذي عاصر ظهور الإسلام والفتح العربي لمصر

---

[176] معالم تاريخ وحضارة مصر – القسم الثاني (د سيد الناصري) صـ 266

177 معالم تاريخ وحضارة مصر – القسم الثاني (د سيد الناصري) صـ 285

الإمبراطور البيزنطي هرقل :

من أعظم أباطرة الروم وأكثرهم شهرة في المصادر العربية ، لأن اسمه اقترن بالفتوحات الإسلامية وتحرير بلاد الشام ومصر من الحكم الروماني ، فبعد تمكُن الدعوة الإسلامية حرص النبي عليه الصلاة والسلام على بعث الرسائل إلى كسرى وهرقل وغيرهم ليعرض عليهم الإسلام، وقد بعث برسالة إلى هرقل يطلب فيها منه أن يُسلِم حتى يسلم، ويأتيه الله أجره مرتين، وعندما وصل كتاب رسول الله إلى هرقل قرأه وهو مقيم في بيت المقدس، وقد كان عنده أبو سفيان بن حرب حيث طلبه هرقل ليسأله عن النبي الذي بُعِث فيهم. وتشير الروايات التاريخية إلى أن هرقل كاد أن يسلم ويؤمن بدعوة الإسلام لولا خوفه من قساوسته، ومن حوله الذين كانوا يكرهون العرب كرهاً شديداً، وقد توفي هرقل في سنة 641 ميلادي بعد أن شهد هزيمة الروم في اليرموك ورحيلهم عنها سنة 636 ميلادي. ومن أبرز الأحداث التي وقعت في عهده زيارة عمرو بن العاص رضي الله عن لمصر قبل الإسلامي ، وقد وردت بعض تفاصيل عن هذه الزيارة في بعض المراجع كالآتي :

زار عمرو بن العاص مصر قبل الإسلام تقريباً في (صيف عام 602 م)178 ففي أثناء رحلة من رحلاته التجارية إلي الشام وأثناء وجوده في جنوب فلسطين (- - - فإذا به يقابل شماساً مصرياً وقد أصابه عطش شديد في يوم صيف قائظ شديد الحرارة ، فسقاه عمرو من قربه له فشرب حتي ارتوي ونام الشماس مكانه من فرط الإعياء والتعب وكان الشماس من شمامسة الروم من أهل الإسكندرية قدم للصلاة في بيت المقدس ويبدو أنه كان يتعبد في جبال المنطقة التي تقابل فيها مع عمرو بن العاص وأثناء نوم هذا الشماس في ظل شجرة هائلة عجفاء خرجت حية من حفرة لها بجوار الشماس فبصر بها عمرو فنزع لها بسهم فقتلها)179 وعندما أحس الشماس بأن عمرو أنقذ حياته مرتين أصر علي أن يعطيه مكافأة مقابل لذلك فسأله كم تكون دية القتيل عندكم في بلاد العرب وما نظير ذلك من الدنانير فأخبره عمرو أنها ألف دينار فقرر الشماس أن يدفع لعمرو ديتين أي ألفي دينار نظير إنقاذ حياته مرتين وعرض عليه أن يصحبه إلي مصر كي يتمكن من تنفيذ وعده (فقال عمرو : كم يكون مكثي في تلك الرحلة ؟ قال له الشماس : شهراً ، تنطلق معي ذاهباً عشرة أيام وتقيم عندنا عشرة أيام وترجع في عشرة أيام ولك علي أن أصحبك وأحفظك ذاهباً وأن أبعث معك من يرافقك ويحفظك

178 المسيحية والإسلام في مصر (د حسين كفافي) صـ 93

179 المسيحية والإسلام في مصر (د حسين كفافي) صـ 94

راجعاً – –)180 وبعد أن شاور عمرو أصحابه انطلق مع الشماس إلي مصر وكانت أول زيارة له لمصر ، وأثناء الرحلة استطاع عمرو أن يعرف الكثير عن مصر وشاهد في مصر (– – مروراً بالقري والريف والمدن ومخالطة للأهالي الفقراء والأغنياء والريف والتجار والفلاحين والكهان والرهبان والقساوسة ، هذا بالإضافة إلي جحافل الاستعمار البيزنطي من ضباط وجنود وموظفين ، وخلال هذا الحشد الهائل من البشر سواء كانوا مصريين مستعبدين أو بيزنطيين مستعمرين ، عرف الكثير والكثير عن بعض الأمور ، وعرف خلالها المداخل والطرق والمسالك والوديان والجسور والأماكن التي يمكن الإقامة فيها ، واستطاع أن يحس بالشعب المصري وما يعانيه من جنود الروم وما يقاسيه من ظلم وقهر – –)181 وكان الشماس المصري يتحدث مع عمرو في الطريق عن أحوال مصر والمصريين وعن سر الاضطهاد الديني للمصريين من أباطرة بيزنطة كما تحدث معه عن حضارة الإسكندرية العريقة وانبهر عمرو بالإسكندرية ومبانيها المختلفة وتجول في أنحاءها ودخل أسواقها وشواطئها وأحياءها ومكث بها عشرة أيام كاملة فكانت هذه الزيارة تمهيد وإعداد لفاتح مصر بعد ذلك

ولقد كان العالم في ذلك الوقت قد وصل إلي مرحلة وصفها العقاد وصفاً رائعاً في كتابه الممتع عبقرية محمد صلي الله عليه وسلم ، حيث كتب ما ملخصه :

(كان عالماً متداعياً قد شارف النهاية – – خلاصة ما يقال فيه أنه عالم فقد العقيدة كما فقد النظام – – أي أنه فقد أسباب الطمأنينة في الباطن والظاهر – – طمأنينة الباطن التي تنشأ من الركون إلي قوة في الغيب تبسط العدل وتحمي الضعيف وتجزي الظالم وتختار الأصلح والأكمل من جميع الأمور ، وطمأنينة الظاهر التي تنشأ من الركون إلي دولة تقضي بالشريعة وتفصل بين البغاة والأبرياء وتحرس الطريق وتخيف العائثين بالفساد)[182] هكذا وصف العقاد بأسلوبه الرائع الأحوال في العالم ثم يشرح بعد ذلك موقف كل دولة علي حدة فيقول (بيزنطة قد خرجت من الدين إلي الجدل العقيم الذي أصبح بعد ذلك علماً عليها وتضاءلت سطوتها في البر والبحر حتي طمع فيها من كان يحتمي بجوارها ، وفارس قد سخر فيها المجوس من دين المجوس – وكمنت حول عرشها كوامن الغيلة وبواعث الفتن ونوازع الشهوات ، والحبشة ضائعة بين الأوثان المستعارة من الحضارة تارة ومن الهمجية تارة – عالم يتطلع إلي حال غير حاله – عالم يتهيأ للتبديل أو للهدم ثم البناء – –)[183]

ووسط هذا كله بعث المولي عز وجل نبيه محمد صلي الله عليه وسلم من ذرية إسماعيل عليه السلام الذي تركه أبوه سيدنا إبراهيم عليه السلام بجوار بيت الله الحرام {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (126) وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (127) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا

---

180 المسيحية والإسلام في مصر (د حسين كفافي) صـ 95

181 المسيحية والإسلام في مصر (د حسين كفافي) صـ 101

[182] عبقرية محمد (صلي الله عليه وسلم) (عباس محمود العقاد) صـ9

183 عبقرية محمد (صلي الله عليه وسلم) (عباس العقاد) صـ 9

مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (128) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ (129)}[184]

وبظهور الإسلام في الجزيرة العربية تم تحرير شعوب المنطقة بالكامل من بطش الفرس واضطهاد الروم لتصبح القومية الإسلامية فقط أعلي من أي قومية أخري وليس العربية أو الفارسية أو الرومانية أو أي جنسية أخري ليعيش البشر طبقاً لمنهج الله سبحانه وتعالي فليس لأحد أن يضع منهج بشري ويفرضه علي الناس وتم هزيمة الروم والفرس علي يد المسلمين ، ولقد كان النصر حليفهم لأنه دائماً من عند الله سبحانه

ولقد كان العرب مؤهلين لهذه المعارك قبل الإسلام ولكن كان ينقصهم أحد أهم أسباب النصر كما يقول العقاد رحمه الله (فالذي لا ريب فيه أن الصحراء قد تعاقبت فيها الأجيال علي حروب العصابات التي تشترك فيها القبائل أبداً بين عادية ومعدو عليها وأن البدوي قد عاش زمناً كما جاء في التوراة " يده علي كل إنسان ويد كل إنسان عليه " فحصل من ذلك حكمة مطبوعة يصح أن تسمي " حاسة الحرب " أو أهبة الميدان الخالد التي لا تفارقه في ليل أو نهار فلا يزال حياته في حيطة المدافع واستعداد المهاجم ويقظة القلب للنضال الذي يتعرض له بين مضطر مغتصب أو طائع مختار وهذه الملكة لا تحصل لأبناء المدن الذين يندبون للقتال بين آونة وأخري ويتدربون عليه كأنه عمل يؤدي في مكان العمل ثم يطرح عن العاتق في سائر الأوقات)[185] ويؤكد العقاد في كتابه الرائع عبقرية خالد أن العرب كانوا علي دراية بكافة أنواع الخطط الحربية وفنون القتال ويؤكد أيضاً أن (– – النهضة العربية لم يكتب لها النصر لأن الفرس والروم كانوا يستحقون الهزيمة وكفي بل هي قد انتصرت لأنها كانت تستحق النصر بأسبابه التي لا مصادفة فيها ولا محاباة ولا محل لها لفلتة نادرة لا تقبل التكرار وإنما كانت أسباب النصر عند العرب ناقصة فتمت في أوانها فغلبوا بوسائل الغلبة جميعها –)[186]

---

[184] البقرة 126–129

185 عبقرية خالد (عباس العقاد) صـ 6

186 عبقرية خالد (عباس العقاد) صـ 11